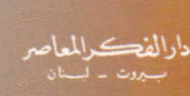
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

أوربّة

من التقنيّة إلى الروحانيّة

مشكلة الجسر المقطوع




دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذينَ آمنوا مَن يرتدّ منكم عن دينـهِ فسوفَ يـأتي اللهُ بقـومٍ يحبهم ويحبـونـهُ أذلـةٍ على المـؤمنينَ أعـزةٍ على الكافرينَ يجاهـدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخـافونَ لومـةَ لائمٍ ، ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاءُ ، وَاللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾

[المائدة : ٥٤/٥]

﴿ وَإِنْ تَتَوَلّوا يستبدل قوماً غَيْرَكُمْ ثُمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾

[محمد : ٣٨/٤٧]

مُقَدِّمَة

أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والشكر له أن هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

وبعد فإن (أوربة من التقنية إلى الروحانية ، مشكلة الجسر المقطوع) عنوان لندوة أقيمت في غضون شهر حزيران لعام ١٩٩٩ ، في المركز الاجتماعي والثقافي من مسجد الدعوة في باريس ، ثم إنه عنوان للمحاضرة التي ألقيتها في صالة بروناي من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في لندن ، يوم ٢٤ من الشهر ذاته .

ولعل من المهم أن أعقد مقارنة بين الاستجابة التي رأيتها لهذا العنوان من قبل الفرنسيين في باريس ، والاستجابة التي رأيتها له من قبل البريطانيين في لندن . علماً بأن المحاضرة أعلن

عن عنوانها في وقت مبكر بكل من اللغتين العربية والإنكليزية ، في لندن ، كما ترجمت المحاضرة ذاتها إلى اللغة الإنكليزية ، ووزعت على الحاضرين أثناء إلقائها .

في باريس اشترك عدد من أبرز رجالات الفكر والثقافة الفرنسيين في هذه الندوة ، منهم الأستاذ جاك شوميناد الذي كان منافساً لجاك شيراك في انتخابات رئاسة الجمهورية الفرنسية .

وقد كان التفاعل مع عنوان الندوة حاراً وعميقاً ! كان ثمة اتفاق على أن أوربة تمارس التقنية وهي نائمة ، لا تدري ماذا تفعل ولماذا تفعل .. وكان ثمة اتفاق أيضاً على أن أعلى ما بلغت إليه مهارة الغرب هو استحداث أجهزة التقتيل ودقة تسويقها والمتاجرة بها .. وكان ثمة اتفاق على أن الأخلاق الإنسانية لن تهيمن في المجتمع إلا بسلطان من الروح ، ولكن الروحانية بدورها تحتاج إلى ضوابط وموازين علمية تحجزها عن الخرافة وأفانين الشعوذة والدجل . فأين توجد هذه الضوابط ؟.

كان الطرح الذي لم يلق أي معارضة : الإسلام .

وكان الجمهور الـذي يصغي إلى حـوار النـدوة وأعضـائهـا ، خليطـاً من فرنسيين وجـاليـات إسـلاميـة ، كان اشتراكهم من خلال الأسئلة والمناقشة أمراً يبعث على الإعجاب والغبطة .

المهم أن هـذا العنوان لاق هوى في نفوس كل من الفرنسيين المشتركين في الندوة والفرنسيين المحتشـدين في الصـالـة مع جمهرة المتابعين لها والمناقشين لأعضائها .

☆ ☆ ☆

وفي لندن ، حيث كان الإعلان عن هذه المحاضرة وعنوانها ، سـاريـاً في الأوسـاط المختلفـة ، كان الجمهور الـذي وفـد لسماعهـا كبيراً ، غير أنه كان مؤلفاً ، فيما أعتقد ، من الجاليات الإسلاميـة وحدها ، ولم تقع عيناي على أيّ بريطاني مشترك حسبمـا تبـدّى لي من تفرسي في الوجوه .. وقد كانت كثيرة حقاً !.

ترى ما سبب هذا الفرق ؟

لمـاذا كان تفـاعل الفرنسيين مـع هـذا المـوضـوع كبيراً ، في حين أنني لم أجد ولا بريطانياً واحداً حفل به ؟

قيل لي إن فرنسا تعدّ في مقدمة المجتمعات الأوربية المنفتحة على آفاق الثقافة ؛ أياً كان نوعها ، ومن ثم فإن العقلية الفرنسية تعدّ من أكثر العقليات الأوربية احتكاكاً بالفكر الإسلامي وإصغاءً إلى الحقائق الإسلامية دون عصبية أو اعتداد بالذات .

☆ ☆ ☆

في حين أن بريطانية كانت ولا تزال ذات عقلية كلاسيكية ، تعتز بتراثها الذاتي ، ولا تتزحزح عنه إلاّ بمقدار . هذا إلى جانب حساسيتها التاريخية المعروفة تجاه الإسلام والحضارة الإسلامية ، وإن في سجّل مواقفها من القيم الإسلامية في مستعمراتها ما يميزها عن نظائرها من الدول الأوربية .

وقد ذكرني هذا الرأي الذي سمعته من كثيرين بحديث تاتشر في أواخر حكمها عن الإسلام وخطورته وضرورة التفرغ لمواجهته بعد الانتهاء من مشكلات الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفياتي .

وعلى كل ، فلا بدّ أن أضع أمام القارئ صورة هذا الفرق ،

الـذي برز في فترة متقـاربـة جـداً ، بين مـوقفي الفرنسيين والبريطـانيين ، من موضوع طرح وبحث في كل من البلـدين ، عنوانه : « أوربة ، من التقنيـة إلى الروحـانيـة ، مشكلة الجسر المقطوع » .

أياً كان الموقف والسبب ، فإني أعتقد أن أهمية هـذا البحث لا تكمن في المواقف الإيجابية أو السلبيـة من طرحـه ، وإنما تكمن في مـدى التوفيق الـذي حـالفني في الكشف عن المنعطف الخفي الـذي تمرّ بـه أوربـة اليوم ، والتنبيـه إلى النتـائج المتـوقعـة عما قريب !. إنني لا أعلم شيئـاً عن مـدى التوفيق الـذي حـالفني في الكشف عن خبيئة هذا الأمر .. ولكني أعلم أن قـادمـات الأيـام تحمـل مفـاجـآت لربـوع أوربـة ، آمـل وأرجـو أن تكـون لخير الإسلام والمسلمين .

محمد سعيد رمضان البوطي

أوربة
من التقنية إلى الروحانية
مشكلة الجسر المقطوع

كنت بصحبة ثلّة من الأصدقاء في مدينة (ستراسبرغ) بفرنسا ، نتبادل الحديث على أعقاب مؤتمر من المؤتمرات الإسلامية . وكنت أتحدث بمرارة عن خيبة الأمل بالمسلمين وواقعهم الذي هم فيه . فاتجه إليّ منهم أخ فرنسي مسلم ، سمّى نفسه (يوسف) قائلاً : أين أنت من قول الله عز وجل :

« يا أيها الذينَ آمنوا مَن يرتدّ منكم عن دينهِ فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبهم ويحبونهُ أذلةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومةَ لائمٍ » [المائدة : ٥/٥٤] .

لا أستطيع أن أصف مدى سعادتي وطربي بهذه الكلمات الوجيزة التي خاطبني بها هذا الأخ الفرنسي !.. وعلى الرغم من أن هذه الآية القرآنية رائعة فيما تحمله من مدلول وبشارة ، فإن نشوتي البالغة لم تكن منبعثة من سماع هذه الآية بحدّ ذاتها ، ولكنها كانت منبعثة من أن ينطق بها هذا الإنسان الفرنسي بكل شموخ واعتزاز !

لقد تأملته ، وهو يجاهد لسانه في النطق بهذه الآية القرآنية على وجهها العربي السليم ، فلم أر فيه إلا مظهراً لصدق هذا الكلام الرباني العظيم .

وتفتحت أمامي ، من هذا الاقتران الأخاذ بين صيغة هذه الآية والمعنى المتجسد لها في شخص هذا الفرنسي ، آفاق واسعة من الأمل بانعطاف إنساني شامل قريب إلى الإسلام ، في ربوع الغرب .

ولست أعني الانعطاف الفكري الذي يتكون رصيده من تراكم الأفكار والفلسفات الكلامية . بل أعني الانعطاف

الوجداني المتجاوب مع الصورة القرآنية الأخاذة ، صورة : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ !.

إنني على الرغم من يقيني بالمواقف العدوانية الخفية والمعلنة التي يقفها الغرب ضدّ إسلام المسلمين في بلادهم ، على يقين أيضاً بأن انبعاثاً جديداً للإسلام سيظهر في ربوع الغرب ذاته .

ذلك لأن ثمة جدلية مستمرة بين تفاقم معاداة الإسلام والخوف منه لدى قادة الدول الغربية وساستها ، وتزايد التطلع إلى الإسلام والرغبة في معرفته لدى الشعوب الغربية . فكلما ازداد ساسة الغرب وقادته تخوفاً من الإسلام وإظهاراً لمعاداته ، ازدادت لدى شعوبهم الرغبة الذاتية في معرفة هذا العدو المخيف ووجه خطورته ! وكلما ازدادت هذه الرغبة الذاتية المحايدة لديهم ، ازدادت المخاوف منه وأسباب معاداته والوقوف في وجهه لدى القادة والحكام وذوي المصالح السياسية .

وإن مصدر هذا الأمل لا يتمثل في جهد بشري يقوم به المسلمون أو في مستوى إسلامي أو حضاري باسق يتمتع به

المسلمون في بلادهم . فإن الأمر ـ كما هو معلوم ـ على خلاف ذلك تماماً .

ولكن مصدر الأمل يتمثل في أن الغرب ، منذ سنوات خلت ، توقف عن تقدّمه الصاعد الذي دفعته إليه الأقدار بدءاً من عصر النهضة ، فهو اليوم يراوح في مكانه ، ويتحرك ولكن ضمن ما يشبه الدائرة المغلقة .

وأنا لا أعني بالتقدم التقدم التقني والعلميّ خاصة ، كما لا أعني التقدم العسكري أو العمراني ، وإنما أعني التقدم الإنساني عموماً . وهو الغاية كما تعلمون من سائر مظاهر التقدم التقني والعلمي والعسكري ونحوها .. بل إن سائر الأنشطة العلمية والقوة العسكرية والحركات الاقتصادية ، إنما يُنظر إليها على أنها أجزاء متراكبة متآلفة لكلٍ واحد ، هو الحياة الإنسانية بكل مقوماتها ومتطلباتها .

غير أن هذه الأجزاء ، غدت منذ حين منفصلة عن كلّها هذا ، فهي أشبه ما تكون بروافد من المياه الصالحة والنافعة ،

أريد لها أن تتجه من شتى الجوانب فتصب في أرض مستصْلَحةٍ مزروعة ، لتينَع بالخضرة والخير والغلال . ولكنها تحولت عن هذه الأرض الظامئة ، وتسربت متفرقة بين أودية وقيعان متفرقة شتى !..

العمران يتطاول .. والمخترعات العلمية تتزايد .. والقوى العسكرية تتجه نحو مزيد من القدرة على الدمار .. والمكر السياسي في تألق مستمر .. ولكن الإنسان الغربي الذي يفترض أن يكون محور هذه الأنشطة كلها والسيد المخدوم من قبل كل هذه الطاقات ، ما زال منذ أمد بعيد يقف من آمال الإنسانية أمام ما يشبه الأبواب الموصدة .

إنه يجترّ وحشته من الحياة الرتيبة التي يعيشها ، وإنه ليعبر عن وحشته هذه بشتى الوسائل والتصرفات الغريبة !.. وهو يحاول بكلّ السبل أن يعتصر من أسباب النعيم المتراكمة أمامه ، غذاء لعواطفه وأشواقه وظمأ روحه ، فلا يجد أمامه إلا العصارة التي تغذي جسده الفاره وبطنه المتخم ، وكأنه ليس إلا كتلة من اللحم والعظم والدم !..

يبحث في الدار التي درج منها عن ينـابيع عواطفـه وسكن فؤاده ، فلا يجد الدار إلا جنـاحـاً فخماً من فنـدق أو (موتيل) يأوي إليه النازل لرقاد بعد أرق أو لراحة بعد تعب . أما الأسرة وصلة ما بين الزوج وزوجـه والأبوين وأولادهما ، فعلى الغـالب ذكريات مطوية وأخبـار غـابرة يرويها الكتـاب والمؤرخون ، ويتحدث عنها جيل عن جيل !..

يتلمس من خلال كل ما يمارسه من أسباب المتعـة واللـذة ، ما يهـدف إليـه ويحلم بـه من انشراح صـدره وسرور قلبـه .. فلا يواجهه إلا الضيق الخـانق والكآبـة المطبقـة . لـذا فـإن السرور الذي يتمتع به الإنسان الغربي ـ غالباً ـ هو ما تصنعه لـه الكأس ، لا ما يفيض به القلب .

أما قيمة الإنسان هناك فإنما ينظر إليهـا من خلال مقيـاس ميكانيكي مجرد .. أجل فالناس في الغرب يعيشون تحت سلطـان الآلة ويتحركون بالضرورة تبعـاً لهـا ، ومن ثمّ فقـد غـدوا تحت سلطان هذا الواقع قطع غيار وعناصر يمكن استبـدالها ، داخل آلـة ضخمـة هي الـدولـة !.. بل الإنسـان في منظور الصراعـات

السياسية مجرد رقم رياضي في حساب اعتباري .. إنه ليس إلا كسْراً من وحدة مقسمة إلى عدد من الملايين . ولا تتمثل قيمة هذا الكسر أو الرقم إلا في المصالح المادية التي لا يهدأ التنافس عليها والصراع من حولها .

هذا هو الإنسان الغربي .. إنه يعيش اليوم سجين حضارته المتألقة الجانحة .. ومهما طال به البحث والتنقيب عن مخلص ، فلن يجد لنفسه مَخْلصاً حقيقياً ! إلا باللجوء إلى المرآة التي تعرّفه على ذاته ، ومن ثم تهديه إلى الإسلام الذي هو الجذع الأوحد لكل ما قد تكاثر من بعدُ من المذاهب الدينية السماوية .

فهذا هو الذي يعيد إلى هذا الإنسان اعتباره وقداسته الإنسانية ، وهو الذي سيريه الوجه المؤنس من الحياة خلال كلٍ من مداها القريب والبعيد معاً ، وهو الذي يعيد إلى الأسرة شملها وينشر في الدار روحها .. وهو الذي يمدّ القلب بغذائه العاطفي ويروي ظمأه الوجداني وأشواقه العلوية .

وأذكر بهذه المناسبة أن الكاتب الروماني (كونستانتان جيورجيو) ألّف رواية ظهرت في أول الخمسينيات ، سماها

(الساعة الخامسة والعشرون) تحدث فيها عن المجتمع الآلي في الغرب ، وعن أن الآلة عما قريب ستستعبد الإنسان ، وأن الناس في الغرب سيتحولون إلى جيوش من الأرقاء المستعبدين تحت سلطان الآلة وسيادته .

ثم قال : ولكن هذا الاكتساح الآلي لحرية الإنسان وكرامته سيعقبه اعتراف بالموهبة الإنسانية ، وسيشرق النور العظيم من الشرق ، من آسية .. ولكن ليس من روسية . إن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي .. سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي .. إنه لن يضيء بنور النيون خطوط الفكر والقلب . إن رجل الشرق سيجعل من نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي .

وأنا أؤيد كاتب الرواية في أن الإنسان سيتحرر عما قريب من سيادة الآلة والمادة كما قال .. ولكني أخالفه في أن نور هذا التحرر سينبثق من الشرق . ذلك لأن الشرق مكبّل بعوامل التخلف .. وأخطرها وأشدها ؛ ما يعانيه من التجزؤ الذي تحول إلى تنابذ وخصام .. إن النور الذي يشير إليه جيورجيو سينبثق

حيث تجري التجربة الفاشلة التي ظهر فشلها . والقاعدة المنطقية تقول : التجربة الفاشلة تحمل بذور نقائضها . وإن الإرهاصات الدالة على ذلك كثيرة ، وأهمها هذا المنعطف الهام الذي يمرّ به الغرب اليوم ، في طريقه إلى اعتماد منظور جديد للعلم ، يتسع لمزيد من حقائق الكون ، وينظر إلى (العقل) على أنه فاعل حيادي بعد أن ظل دهراً طويلاً ينظر إليه على أنه منفعل تابع للمادة وحكمها .

من أجل هذا سينبعث الإسلام انبعاثه المرتقب الجديد من الغرب .. بل من الغرب أولاً . هذا ولن يكون إقبال الإنسان الغربي إليه عن رغبة في استغلاله ، كما هو شأن الذين يتقنون فن المناورات ، وكما أقبل الرومان يوماً ما إلى المسيحية ، وأقبل يهود (سولانيك) إلى الإسلام ، في أواخر الخلافة العثمانية .

ذلك لأنهم لن يلتجئوا إليه ابتغاء مزيد من التوسع الاستعماري أو قصداً إلى أطماع اقتصادية ، أو رغبة في حلّ مشكلة اجتماعية .. وإنما سيكون التجاؤهم إليه بدافع من البحث عن هويتهم الضائعة وأشواقهم التائهة . وبتعبير آخر : إن

انعطافهم إليه سيكون من قبيل عودة الغائب إلى أهله بعد طول ابتعاد وشرود .

وسيكـون العـامـل السحري الـذي ينقلهم من أقصى آفـاق الإباحية والتفلّت إلى منتهى حدود الانضباط والتقيد ، دون أن يشعروا بضيق أو تأفف ، عاملاً واحداً لا ثاني له ، هو الحب !.. وسيكون مصـدر هـذا الحب خيبـة آمـالهم فيما كانوا يحسبونـه سرّ سعادتهم ، من متع الحياة وأهوائها ، وشعورهم بـالنشوة الراضيـة التي تنبعث من أفئدتهم على غير توقع ، لدى أول التفاتة صادقـة منهم إلى الله !..

إن الظمآن الذي ابتلي من الدنيا بسراب إثر سراب ، وقـاده الظمأ القتال من خداع إلى خداع ، ثم وقف فجأة على يدٍ حانيـة رفعت إلى فمه وأسقته أبرد شراب عـذب فرات ، لا بـدّ أن يعشق اليد وصـاحبهـا .. ولا والله مـا انتهى واحـد من هؤلاء الغريبين من رحلتـه المضنيـة إلى محراب العبوديـة لله عزوجل ، ورأى في ذلك المحراب ذاته ، وذاق نشوة الإقبال إلى الله والاصطلاح معـه بعد طول شرود وضياع ، إلا وكان حاله مع الله مثل حال ذلـك

الظمآن التائه ، مع تلك اليد الحانية التي انتشلته من تيهه وأروته من ظمئه .

كان ينتقل من تجربة مضنية إلى أخرى ، ويتجاوز الكؤوس إلى الشذوذ .. ثم إلى أفانين المخدرات .. دون أن يجد من يتولى أمره ويشرح صدره ويسرّي عنه همّه . حتى إذا رأى الله بعين بصيرته ومشاعر قلبه ، سمع النداء الإلهي يجذبه إليه قائلاً ﴿ إنما وليكم الله ﴾ [المائدة : ٥/٥٥] ولما استسلم لنشوة هذا الخطاب سمعه يقول ﴿ ذلكَ بأن اللهَ مولى الذينَ آمنوا وأنَّ الكافرينَ لا مولى لهم ﴾ [محمد : ٤٧/١١] وما كاد يستيقظ من نشوة هذا الكلام حتى عاوده النداء قائلاً : ﴿ الله وليُّ الذينَ آمنوا يُخرِجُهم منَ الظُلُماتِ إلى النورِ ، والذينَ كفروا أولياؤهُمُ الطاغوتُ يُخرجُونَهُم منَ النورِ إلى الظلماتِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٧] .

لا جرم أن هذا النداء سيجذبه وأمثاله إلى أعلى درجات الأنس بصاحب هذا النداء ، وسينقله إلى أصفى مشاعر الحبّ له . ولسوف يزداد لديه هذا الشعور مع الزمن ، كلما ازداد

ابتعاداً عن مرارة أيامه السـابقـة وانغماسـاً في نشوة قربـه إلى الله وممارسة العبودية له .

تعرفت على واحد من هؤلاء منـذ سنوات ، شـاب أمريكي يـدرّس في إحـدى جـامعـات الـولايـات المتحـدة ، وقـد دخـل الإسلام حـديثـاً ، وكانت المنـاسبـة التي جمعتني بـه الاشتراك في مؤتمر عقـد بـالريـاض ، في المملكـة السعوديـة . وقـد أتيح لنـا آنذاك أن نتجه إلى مكة فنؤدي العمرة .. نظرت إلى هذا الشاب الأمريكي فإذا هو أكثرنا تبتّلاً وعبودية لله .. كان يلصق جسمـه بـالملتزم من البيت العتيـق ثم يبقى كـذلـك ، كالطفـل الشـارد الخائف الذي اهتدى إلى أمه فالتصق بمأمنه من صدرها لا يريـد أن يفارقه ولا أن ينفك عنه .

ولما انتهينا من أعمال العمرة اكتفى جميعنا بـالتقصير ، أمـا هـو فقـد آثر أن يحلـق شعره من آخره ، وكان يتمتـع بشَعْر ذهبي رائع !..

✡ ✡ ✡

أعتقد أن سؤالاً هنا لا بدّ أن يقفز إلى ذهني وأذهانكم جميعاً ، يقول :

فعبر أي طريق سيتجاوز الغرب دائرة حياته المادية التي وصفْتها إلى صعيد حياته الإيمانية التي ستحرره من بؤس آماله الخائبة وتقف به على المعين الإنساني المسعد ؟!..

والجواب أنه اليوم طريق مسدود وجسر مقطوع . ولكن المساعي الفكرية الحثيثة تبذل منذ حين لاختراق السد وإصلاح الجسر . وها أنا أحكي لكم باختصار قصة هذا الجسر المقطوع والمساعي الفكرية التي تتكاثر بسرعة لإصلاحه ومدّه .

كان الغرب ولا يزال يتعامل مع (العلم) بل يأبى أن يتعامل مع غيره وأن يقيم أي وزن إلاّ له .. وليس في هذا أي إشكال . بل هذا هو نداء العاقل لسائر العقلاء ، وهذا هو أمر الله لعباده في القرآن .

إنما الإشكال في المعنى الذي يفقهه الغرب لكلمة العلم والدائرة المادية التي يأبى إلا أن يحصر هذه الكلمة فيها . فالعلم في

المصطلح الغربي هو التجربة المادية التي تـأتي بعـد المشـاهـدة ، والتي يستخرج منها على أعقاب ذلك قرار ، ومن ثم فحركة العلم جهد حسّي مادي أكثر من أن تكون نشاطاً عقلياً داخليـاً . أمـا مـا وراء ذلـك فهو يسمى في أوثق الأحوال (معرفـة) وهو شيء قد يحفل به الأفراد ، ولكنه كان إلى قريب من هذا العهد بعيـداً عن منبر القيادة والحكم في المجتمع .

ومما يلفت النظر ، أن الفرق بين المعرفة والعلم لا وجود لـه إلا في المصطلــح الغربي الـذي يسمي الأول : (**Knowledge**) ويسمي الثـاني (Science) ونظراً إلى أن قصـة هـذا الكـون وعلاقته بالمكوّن وقصة الرحلة الإنسانية في هذه الحياة ، خارجة عن دائرة المادة وبرهان التجربة والمشاهدة ، فقد كان ذلك كلـه خارجاً عن نطاق العلم ، غير داخل في عمله واختصـاصـه . ومن ثم فمن حق الإنسـان الغربي أن لا يحفل بشيء منـه وأن لا يصرف إليه وقتاً ولا يشغل به بالاً !..

تلـك هي قصـة الجسر المقطـوع بين الـواقـع المـادّي الـذي يتقلّب الغرب في غماره اليوم ، والمستقبل الإيمـاني الفعّال الـذي

أعتقد أنه سينتهي إليه عما قريب .. فما هي قصة المساعي التي تبذل اليوم في المجتمعات الغربية لإصلاح هذا الجسر ومدّه ؟

لا شك أن الذي قضى بأن تسجن كلمة العلم في دائرة التجارب المادية المنظورة ، انبهار الغرب بعلومه المادية التي نبغ فيها كثير من العلماء . ولعل هذا الانبهار يتجلى بأوضح مظاهره في أفكار ثلاثة من العلماء شاء الله أن يوجدوا في عصر واحد ، في القرن السابع عشر هم غاليليه وديكارت ونيوتن . ولعلي لا أبالغ إن قلت : إن هؤلاء الثلاثة هم أول من حصروا معنى العلم في هذه الحدود المادية الضيقة بل الخانقة .

إذ كانوا يرون أن المادة هي ينبوع الوجود كله ، فلا جرم أن ذلك السجن المادي الخانق كان هو وحده ـ من وجهة نظرهم ـ غرفة العمليات التي يجب أن يتحرك في داخلها البحث العلمي .

إلا أن نظرة علمية جديدة برزت في أوائل القرن العشرين ، تخالف تلك المعتقدات التي ظل الغرب يتبنّاها

طوال قرنين ونصف من الزمن . كان من ألمع أبطالها وروادها آنشتاين ، وهايزنبرغ (HeiseNberg) ، ويوجين فيغنر (Eugene Wegner) ، حيث استحدث هؤلاء ومن جاء بعدهم وسار على منوالهم ، مفاهيم جديدة كل الجدّة أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية السابقة المنبثقة عن اليقين بأن المادة هي مصدر كل شيء .

فقد أثبت أنشتاين مثلاً نسبية الزمان والمكان ، ومن ثم فقد برهن على أنه لا يوجد زمان أو مكان مطلق . كما تبين للكثيرين من الفيزيائيين أن الذّرة ليست أصغر جسيم يمكن تصوره كما كان يظن نيوتن .. بل هي نفسها مكونة من طاقات لا حصر لها تجمعت فتكثفت فظهرت بمظهر أصغر جزيئة في عالم المادة .. كما أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية على أن الكون ، بما يحويه من ملايين المجرات ومليارات النجوم والكواكب ، قد بدأ وجوده في لحظة محددة من الزمن . فثبت إذن بما لا يدع مجالاً للشك أن المادة ليست أزلية . بل إن جلّ هؤلاء العلماء المعاصرين قادتهم نتائج أبحاثهم إلى القول بأن

الكون منذ أول انبثاقه كان مهيّأً لاستقبال مخلوقات عاقلة فيه ذات وجود مستقل .. ونظروا ، فوجدوا أن الإنسان يتبوأ مركز الغاية من الوجود الكوني المنظور . ثم رأوا في مظاهر الجمال المنتشرة في الطبيعة على جميع المستويات هدفاً بيّناً وخطة مرسومة . فآمنوا بعقل أزلي الوجود منتصب وراء هذا الكون واسع الأرجاء يدبّره ويرعى شؤونه[1] .

وهكذا فقد تمّ الإعلان عن القرار العلمي في المنظور الجديد لمعنى العلم ، المتضمن بيان أن العقل ليس كما توهمه السابقون منفعلاً بالمادة وقوانينها الفيزيائية والكيميائية . بل هو فاعل فيها مستقل عنها ومهيمن عليها . بل تمّ الاتفاق على أن المادة في أدنى مستوياتها ما دامت لا تفهم إلا باستخدام العقل فلا بدّ من اليقين إذن بأن العقل هو إحدى حقائق الوجود المطلقة . ويقول فيغنر (Wegner) : « هنالك نوعان من الحقيقة أو

(١) انظر : « العلم في منظوره الجديد » تأليف : م أغروس و: ن ، ستانسيو ، ترجمة كمال خلايلي ص ٨ و٩ ، والتعبير بـ« عقل أزلي » لصاحبي الكتاب ، ونحن لا نعبر عن الذات الإلهية بالعقل الذي هو من مخلوقاته .

الوجـود ، وجـود وعي وحقيقـة ، ووجـود كل شيء آخر . وممـا يـدعو إلى الحيرة الشـديـدة أن وجـود النـوع الأول من الحقيقـة كثيراً ما يتعرَّض للنسيان »[2] .

ومن خلال المنظور الجديـد أخـذ العلمـاء يلاحظون الفرق بين مقدمات عملية الإبصـار التي تتم على سطح العين : عـدستهـا وشبكيتهـا والأعصـاب البصريـة التي تنقل مـا استقرَّ مقلوبـاً إلى القشرة الدماغية ، وكلها عبارة عن تبدلات فيزيائية وكيميائية ، وبين الإبصار ذاته الذي يتمُّ بـالإدراك الكامن في الـدمـاغ .. إن إدراك الرائي للون الشجرة حقيقة مستقلـة عن هـذه العمليـات كلها .. كيف يشرق اللون الأخضر على الـدمـاغ لينقل الـدمـاغ بـدوره هـذا اللـون لصـاحب الـدمـاغ ، والـدمـاغ مغلـق عليـه ومعزول عن الضوء ؟ بـل كيف يتلقى الـدمـاغ اللـون الأخضر لينقله لصاحبه قبل أن يتخلَّى عن لونه الرمـادي المعروف ؟!.. إن عمليــة الإدراك البصري تنشــأ بعيــداً جــداً عن التبــدلات الفيزيائية والكيميائية التي تتم في عالم المادة ، طبق قانون مستقل

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

بنفسه مجهول تماماً ، لا يشرحه ولا يرفع الغموض الذي يكتنفه إلا اليقين بأن العقل يأخذ سلطانه من ربّه ، ومن ثم فإن الإدراك فعل مستقل لا انفعال تابع لشيء من قوانين الفيزياء أو الكيمياء . وهو نور علوي يقذفه الله على الدماغ فتتم به عملية الإدراك البصري وغير البصري .

وعلم الحياة الحيوانية لم يمش هو الآخر مع نبوءات وتصورات الفكر المادي الذي فار فورته الهائلة ، إلى أن وصلت إلى ذروتها في غضون القرن العشرين . فلقد انتهى هذا العلم ، على غير توقّع ، إلى نقيض تلك التصورات ، وتهاوت نظريات التطور المتلاحقة المتعارضة بل المتناسخة . ولعل آخر من أعلن بطلان تلك النظريات كلها العالم الفرنسي موريس بوكاي في كتابه (What is the Origin of Man?) ما هو أصل الإنسان .

في غضون هذا التحوُّل ، كان لا بدّ أن تشتدّ وطأة الأسئلة المتعلّقة بما وراء حدود العالم المادي المنظور ، على العلم وأربابه ،

وكان لا بدّ للعقل الإنساني وعقل الرجل الغربي بخاصة ، أن يلحّ على (العلم) الذي لا يجد أمامه غيره للإجابة المقنعة عنها .

غير أن الموقف المفروض على (العلم) وهو في مضيقه المحاصر فيه ، يضطره إلى الاعتذار عن أي إجابة عن كل تلك الأسئلة .

إن جاء من يسأله عن نشأة الوجود الإنساني وما كان من خبر الماضي السحيق ، كان جوابه : لا علاقة لي بهذا الأمر !..

وإن جاء من يسأله عن مصير الإنسان بعد الموت وما هو مقبل عليه ، كان جوابه : وهذا أيضاً لا شأن لي به !..

وإن جاء من يسأله عن العقل وحقيقته أو الروح ومكانها من الجسد ، جاء الجواب ذاته : وهذا أيضاً ليس داخلاً في اختصاصي !..

إن من البداهة بمكان أن من حق العقل أن يتساءل في هذه الحالة ، عما إذا كان هناك أي جدوى إذن للعلم !..

وهكذا فإن أزمة بدأت منذ حين تستشري بين العقل والعلم ، وذلك على أعقاب هذا التحول الذي أشرت إلى جانب يسير منه ، ولقد كان من أبرز آثار هذه الأزمة انصراف كثير من علماء الغرب إلى إعادة النظر في المضمون الاصطلاحي الضيق لكلمة (العلم) ولقد ظهرت أخيراً سلسلة كتب لعلماء غربيين تتضمن السعي إلى وضع منظور جديد للعلم ، بحيث يعقد انسجاماً وصلحاً ما بين العقل الذي يبحث عن اليقين و (العلم) الذي لا يُسمح له بأن يخرج من أقطار ما كان يسمى مادة .

إن الغرب يتجاوز الآن تدريجاً مرحلة ذلك التفريق الاعتباطي بين العلم والمعرفة ، ليضع القرار الأول والأخير بين يدي العقل الذي يبحث دائماً عن اليقين .

ويقول العقل : إن مصدر شرف العلم في الكون كله وخلال الأجيال المتصرمة كلها ، إنما هو اليقين الذي ينبغي أن يغرسه في العقول والذي يطابق الواقع الذي تعلق به العلم . فحيثما وجد هذا اليقين فقد تحققت ثمرة العلم ، ولْيُسَمِّ من شاء من الناس هذا اليقين ما شاء ، وليفصل بينه وبين كلمة (العلم) بكل ما يروق

لـه من الحجب والفـواصـل التي يتصـورهـا ، فـإنما المقصـود أن يتحقق الجوهر والمعنى ، ولا حرج بعد ذلك أن تختلف العبـارات والألفاظ أو أن يختلف ويتعدد المنهج الذي يُتّبع إلى اليقين .

وعندما يتم هذا التجاوز قريباً ، ستتسع قائمـة الموضوعـات التي توضع تحت مجهر العلم لتشمل كل حقـائق هـذا الكـون ، وفي مقدمتها الغيبيات التي تتعلق بوجود الصـانع جل جلالـه وبمبـدأ الإنسان ومنتهـاه . وكما علم الغربيون بـالأمس أن منهج الوصول إلى يقين في القضـايا المادية هو التجربـة والمشـاهـدة ، فسيعلمون اليوم أن منهج الوصول إلى اليقين العلمي في القضـايـا الغيبيـة هو الاعتماد على الخبر الصـادق المتواتر الـذي ينتهي أخيراً إلى الوحي الإلهي الذي يخاطب الله من خلاله عباده معرفـاً بـذاتـه ومنبهـاً لهم إلى قصة الرحلة الإنسانية في فجاج الحياة .

ذلك لأن البصيرة كالبصر . فكما أن العين البـاصرة لا يتسنى لهـا أن ترى الأشيـاء إلا بوسـاطـة النور المكافئ المتمثـل في ضـوء الشمس ونحوها ، فكـذلـك البصيرة (أي الإدراك) لا يتسنى لهـا أن تعلم حقيقة الأشيـاء الغـائبـة عن الحواس ، إلا بوسـاطـة نور

مكافئ بالنسبة إليها ، وهو نور الوحي الهابط من عند الله عز وجل .

وكما أن الشرط الذي يراعى في عملية الإبصار داخل في قوانين العلم ومسائله ، كذلك الشرط الذي يراعي في إدراك البصيرة للحقائق الغيبية ، داخل في قوانين العلم ومسائله ، وعن نور الوحي هذا (أي الشرط الذي يراعى في إدراك البصيرة ، يقول الله تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [المائدة : ٥/١٥ ـ ١٦] .

لن يكون إقبال الغربيين عندئذ إلى معرفة الله والإيمان به إقبالاً تقليدياً وضبابياً شارداً وراء حدود العلم ، لا يحرك ساكناً ولا يصلح فساداً كما هو الحال عندهم الآن .

بل سيكون كإقبال الجائع إلى الطعام الذي ينتظره ، أو كإقبال التائه إلى أهله بعد طول غياب عنهم .. سيكون إقبال معرفةٍ لله بالعقل أولاً ، ثم إقبال محبةٍ له بالقلب ثانياً ،

والإنسان الغربي اليوم ظمآن بقلبه إلى الحب أكثر من أن يكون تائقاً بعقله إلى المعرفة .

إن التحول الذي سيأتي على أعقاب التعامل مع المنظور الجديد لمعنى العلم ، سيسير على النهج التالي :

يستيقن العقل ـ عبر أقنية العلم ـ وجود الله ووحدانية ذاته وسلطانه في الكون .. وعندئذ يهيمن من جرّاء ذلك ذكرٌ أو تذكرٌ دائم للإله الحقيقي المتفرد بهذا السلطان ، وشيئاً فشيئاً سيدرك صاحب هذا العقل أن الدنيا بكل ما فيها ليست إلاّ صفحة صافية نقشت عليها صفات هذا الخالق عز وجل . فالنعم التي تمتدّ بها إليه أكفّ الناس ليست آتية إلا من يد المنعم الحقيقي الأوحد ، والكمال الذي يتراءى في تدبير أيّ صنع أو مظهر أيّ خلق ليس إلاّ مظهراً لصفة الكمال في مصدره الذاتي الأول ، والجمال الذي يأخذ بالألباب ويروق للأعين ليس إلا أثراً من آثار الجمال في مبدع الجمال كله ، والعلم الذي تعظم مكانته ومكانة أصحابه في صدور الناس ليس إلاّ هبة من لدن علاّم الغيوب جل جلاله .

ثم إن هـذا الإدراك المستمر يـوقـظ القلب ، ويضعـه تحت تأثير محبة عارمـة لصـاحب هـذه الصفـات . إذ تسري خيوطهـا التي تحمل أعلى دواعي الحب على اختـلافهـا إلى داخلـه ، ثم إنهـا تشدّه وتعلو به إلى مصدر هذه الصفات كلها وهو الله عز وجل . فيتجمع من ذلـك شتـات الأهـواء في هـوى واحـد لا ثـاني لـه ، ويتحد المحبوب بعد أن كان موزعاً في مظـاهر وأسبـاب متنوعـة شتّى .

وبِسرٍّ من ذلـك اليقين العقلي عن طريق العلم في منظـوره الجديد ، وهذا الحب القلبي الـذي لا بـدّ أن يـأتي على أعقـابـه ، يتكامل التحول المرتقب الـذي يـأتي مصـداقـاً لقول الله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا مَن يرتَدَّ مِنكُم عن دِينهِ فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَـه أذلَّـةٍ على الْمُـؤمِنِين أَعـزَّةٍ على الكَـافِرِينَ يُجَـاهِـدُون في سَبيـل اللهِ ولا يَخـافُـون لَـومَـةَ لائمٍ ﴾ [المـائـدة : ٥٤/٥] .

☆ ☆ ☆

ألا إن الـدنيـا ستشهـد عمـا قريب أن الحضـارة الغربيــة لم

تضيّع مفتاح السعادة الإنسانية ولم تلق به في مكان قصيّ لا تطوله يد الإنسانية بعد اليوم ، كما يتخيل بعض المتشائمين .

إن مصباح الإسلام لم يخْبُ نوره بعد ، ولسوف يتم العثور على المفتاح الذي تبحث عنه المشاعر الإنسانية في كل الجهات .

ولسوف يتم العثور عليه في ربوع الغرب ذاته .. ولن يتم ذلك إلا على هدي من نور الإسلام وضيائه ، وبمصباح من العلم الحقيقي بعد تصحيح منهجه .

ويرحم الله عبقري عصره سعيد النورسي الملقب بـ (بديع الزمان) فقد سأله مفتي الديار المصرية آنذاك ، الشيخ بخيت المطيعي ، وكانت الخلافة العثمانية في أواخر عهدها : ما رأيكم بمصير الخلافة العثمانية وما يحاك لها في أوربة من المكائد .

فأجابه قائلاً : الخلافة العثمانية حبلى وستلد الإلحاد يوماً مّا ، والمجتمعات الغربية حبلى وستلد الإسلام يوماً مّا !..

وصدق الله القائل : ﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلى أَمرِهِ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١/١٢] .

الأسئلة والأجوبة التي أعقبت المحاضرة

س ـ لماذا كل بلاد المسلمين متخلّفة وكأن بينها وبين التّخلف رابطة لزومية ؟

ج ـ سبب تخلُّف العالم العربي والإسلامي يتلخص في شيء واحد ، هو التّفرق الذي تحوّل إلى تشرذم ، والتّشرذم الذي تحوّل إلى تصادم . وفي مثل هذه الحالة مهما كانت الحضارة باسقة ومهما كانت القوة موجودة والغنى موفوراً ، لا بدّ أن يتبدّد ذلك كله بعامل التّفرق والتّشرذم ، ويظهر على أعقابه التّخلف الذي تسأل عنه ولعل السّائل يقول : فلماذا هم متفرّقون ؟

الواقع أن هنالك خططاً ترمي إلى تفريقهم . ولقد كان من الممكن أن لا تنجح هذه الخطط لوأن هوى العالم الإسلامي كان متطلّعاً إلى الأعلى لا هابطاً إلى الأدنى . لا يستطيع أحد من الناس أن يفرق بين الإخوة في هذه الحالة ، ولكن لما اتجهت

أهـواء الأفئـدة إلى المكاسب الرخيصـة والمغـانم المـاليـة والمراكـز الـدنيو يـة ، وقـام التنـافس حـولهـا ، استغـل الـذين يكيـدون للإسلام نقطة الضعف هـذه . وعنـدمـا تفرغ أفئـدة المسلمين من محبة الأغيار ، وترقى إلى محبّة الله عزّ وجلّ سيتّحدون ، وعنـدمـا يتّحدون ستجد أن كل مظاهر التّخلف قد تبددت وعاد المسلمون إلى تقدُّمهم المنشود ، والذي كانوا عليـه من قبل . ومهما طرحت علاجات أخرى سياسية أو فلسفيـة أو اجتماعيـة أو اقتصـاديـة ، فلن تغني بمجموعها عن هذا العلاج الذي أُنبّه إليه شيئاً .

س ـ الغرب يفخر بحضارته .. بـإنجـازاتـه العلميـة .. بقيم الحريـة واحترام الرأي الآخر .. بـالتكافـل الاجتماعي .. كيف تتصـور أن يترك الغرب كل هــذا ، ويتجــه إلى مــا يراه من تخلف المسلمين على كل الأصعدة ؟!..

ج ـ الأخ السـائل يقف عنـد البوارق والظواهر التي تسكر الغربيين ولكنها لا تسعدهم . اخترق أخي السـائل هـذه الظواهر إلى بواطن الأمور . تعال فـاحتـكّ بكل فرد من هؤلاء النـاس ، وسله عن مدى سعادته بالحضارة التي تصفها ، يـأتـك الجواب كما

قد قلت لك ، ولعل خير شاهد على هذا واقع الناس الذين كانوا إلى الأمس القريب يتقلبون في ألق الحضارة المادية ثم اعتنقوا الإسلام اليوم ، سلهم كم كانت سعادتهم بتلك الحضارة ، ستجد الجواب في زفرات يطلقونها .. ربما قال لك أحدهم لا تذكرني بالمآسي التي تحررتُ منها .

واحد من هؤلاء الناس العالم الأمريكي جفري لنك .. منذ ثماني سنوات فقط دخل الإسلام ، قرأت له كتابه الذي سمّاه (صراع من أجل الإسلام) تحدّث فيه عن تبرُّمه بالمسيحية التقليدية التي تعرّف عليها ، فتجاوزها إلى الإلحاد ، ثم إنه ازداد ضيقاً بذلك ، ولم يعثر على سعادته التي كان ينشدها إلا بعد أن اعتنق الإسلام ، ووقفت في كتابه على مشهد أخّاذ أضعه أمامكم . قال : عندما اعتنقت الإسلام وتعرّفت على عقائده وأحكامه ، كنت حريصاً على أن لا أصليّ الفرائض الخمس إلا جماعة لا سيما الصلوات الجهرية .

قال لي أحد الفضوليين مرة : لماذا تحرص على الصلاة جماعة في الصلوات الجهرية وأنت لا تعرف اللغة العربية ، فقلت

له : لماذا يسكن الطفل الرضيع إلى صوت أُمّه وهو لا يعي من حديثها شيئاً ؟.. إنني أشعر بمثل هذا النسب بيني وبين هذا الكلام الذي أسمعه .

هذا هو الذي يؤكد الكلام الذي قلته ، وعما قريب ستجد مزيداً من الأدلة على ما أقول . وعندما يقبل الغربيون إلى الإسلام بصدق ، فإنهم لن ينتهوا إلى مثل التخلُّف الذي نعاني منه . بل العكس هو الصحيح .

س ـ ما هو تفسيركم للجوء الشباب المسلم والعربي إلى الغرب لكي ينعم بما يسميه حماية حقوق الإنسان في الغرب . وهذا يعكس الظاهرة التي ناقشتها ويذكّرنا بالقول المكرر : ذهبت إلى الغرب فوجدت الإسلام ولم أجد المسلمين ، وعدت إلى الشرق فوجدت المسلمين ولم أجد الإسلام . إذن ما هو الضابط للظاهرة التي تحدثت عنها ؟

ج ـ الظاهرة التي تشير إليها تؤكد الكلام الذي قلته ، فأنا عندما أجد في الغرب توجهاً إلى الأخلاق ، إلى تقدير الإنسان ، إلى رعاية حقوق الإنسان ، أدرك أن هذا يعني أن الخط البياني يتوجه إلى التخلُّص من هذا الأتون الذي يكاد الغرب أن يختنق

فيه ، على أنني لا أوافق على أن الغرب يرعى حقوق الإنسان من منطلــق استراتيجي ثـــابت .. نعم يمكن أن نجـــد الأفراد في المجتمعات الغربيـة يقـدرون الإنسـان ويهتمون برعـايـة حقوقـه ، ولكني عنـدمـا أنظر إلى السيـاسـة والسـاسـة أجـد أن المصـالـح الغربية هي الأساس ، وكل شيء آخر تتمّ التضحيـة بـه في سبيل تلك المصالح .

وهـذا التنـاقض بين موقفي الأفراد والقـادة ، يشكّل اليوم عـاملاً آخر إلى جـانب العوامل التي تـدفـع الغربيين إلى البحث عن مخلص من المعاناة التي يمرّ بها المجتمع الغربي ، والمخلص إنمـا هو الإسلام .

ولعل الأخ السـائل يريد أن يغمز العـالم العربي والإسلامي بتهمــة التّجني على حقـوق الإنســان لا .. هــو يرعى حقــوق الإنسان ، ولكنه ليس ممكناً من تنفيـذ هـذه الرعـايـة ووضعهـا موضع التنفيـذ .. العـالم الإسلامي ليس ممكنـاً اليـوم من تنفيـذ ما يريد ، وكلكم يعرف السبب .

س ـ في ختام كتابك اللامذهبية قمت بتسجيل حوار بينك وبين مدرس للسّلفية ، وقال أستاذ السّلفية في جوابه بأنك لم تستشهد بكلامه كلّياً . والسؤال هنا : هل كانت تلك المناقشة مسجلة بجهاز تسجيل . وما الذي يمكن أن تقوله في هذه المناسبة ؟

ج ـ أولاً : نعم هذا الحوار سُجّل كاملاً ، والسجل موجود لديّ .

ثانياً : أحبّ أن أقول لأخي السائل : ما الموجب لأن تستثير أموراً طويت وطوي تاريخها ؟ نحن الآن أيها السائل نبحث عن نقاط الالتقاء ونبحث عن الوسائل التي تنهي أسباب الخلاف والشقاق . شيء مضى ، وانقضى عهده ، هل هنالك من موجب أو فائدة لاستثارتك أسباب الحديث عنه ؟ عندما تتبصر الفائدة التي تتبينها أو تظنّها سأجيبك .

س ـ هل ترون أن المسلمين في الشرق يعملون ما يكفي ويقومون بما هو واجب لفسح المجال لولادة الإسلام في الغرب ؟

ج ـ لن يكون الفضل في ولادة الإسلام في الغرب للمسلمين الذين يقيمون في الشرق .. الفضل في ذلك لله أولاً الذي يقول :

﴿ .. وإنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم ثُمَّ لا يَكونوا أمْثالَكُم ﴾ [محمد : ٣٨/٤٧] . الفضل في هذا لله الذي يقول رسوله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض فأراني مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمّتي ما زُوي لي منها » والملك هنا بالاتّفاق الإسلام إذ هو الميراث الذي تركه رسول الله من بعده .

أنا قلت : المسألة لا تعود إلى فضل أو إلى تخطيط منا نحن المسلمين .. المسلمون الذين يعيشون في ربوع الغرب ، مع الأسف ، لا يفرغون لأكثر من صراعاتهم وخصوماتهم ، وكثيراً ما يحوجون الشرطة إلى أن يتدخّلوا فيما بينهم . ولكن الغربيين مع ذلك يتنفّسون الصعداء بحثاً عن الإسلام .

س ـ عقد في دمشق مؤتمر للتقريب بين المذاهب الإسلامية يرجى إعطاؤنا لمحة عما تمّ فيه ؟

ج ـ أنا اشتركت في بعض أعمال هذا المؤتمر . ولقد قلت فيه شيئاً يمكن أن يكون جواباً عن سؤال الأخ السائل :

المؤتمرات التي تعقد للتقريب يغني عنها شيء واحد ، هو أن يتجاوز الشيعة مبدأ التقية الذي ما زالوا يأخذون أنفسهم

بـه ، وأن يحـاول كل فريـق أن يقضي على التطرّف المـوجـود لـديـه ، فإذا قضى الشيعـة على التطرّف الـذي يتنـامى بينهم وساروا قدماً وبخطـة مـدروسـة لتحقيق هـذا الأمر ، وإذا اهتمّ أهـل السّنـة في الـوقت ذاتـه بمراقبـة مجتمعاتهم أن لا ينتشر فيهـا التطرّف ضدّ الشيعـة ، فـإن اللقـاء والتقـارب يتحققـان آليـاً . ولكن إذا لم تكن هنـاك التفـاتـة جـادة إلى إنهـاء مبـدأ التقيـة ومعالجة مشكلة التطرّف هـذه ، فـالمؤتمرات التي من هـذا القبيل تراوح في مكانهـا ولا تحقـق شيئـاً . وليت شعري مـا جـدوى مـؤتمرات التقريب هـذه ، وإن عمليـات التشييع من ورائهـا بالإغراءات المالية ، قائمة على قدم وساق ؟!..

س ـ حيث إننا نعلم أين نقف الآن هل يمكن أن تخبرونا عما يمكننا فعله ؟

ج ـ داء المسلمين اليوم في كل الأماكن التي يوجدون فيها ، سـواء في شرقهم الإسـلامي أو في هـذه المجتمعـات الغربيـة ، داء واحـد : التّفرق .. وإذا عرفنـا الـداء سهـل البحث عن الـدواء والعثور عليه ، الدواء هو أن نسقط أسباب الفرقـة ومـا أقلّهـا ،

وأن نحيي النقاط المشتركة وما أكثرها .. هذا هو الدواء .. أين ما ذهبت وتنقلت في العالم الغربي بكلا شطريه الأوربي والأمريكي ، أجد في حياة المسلمين ظاهرة مؤسفة واحدة هو التفرُّق . وهذا هو ذاته البلاء الذي نعاني منه في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، سواء على مستوى الشعوب أو على مستوى القادة ..

إذن عرفنا الآن موقعنا الذي نحن فيه ، موقعنا هو أننا نراوح في هذا الضِّرام . والدواء هو أن نتمسك بالجوامع المشتركة وهي كثيرة ، وأن نتجاوز أسباب الخلاف وهي قليلة .

س ـ قال المفكّر المسلم روجيه غارودي في إحدى محاضراته : السؤال الذي يتردد في الغرب دائماً هو : كيف .. وليس .. ولماذا .. أي أن الغرب يبحث عن الوسائل والطرق ولا يبحث عن الغايات ، من مثل هذه الأسئلة : كيف نصنع القنبلة الذّرية ؟ كيف نصعد إلى القمر ؟ كيف نستنسخ البشر ؟ ولا يسأل الغربيون عن الغاية من وراء هذه الإنجازات ، لذا مع الوصول إلى هذه الإنجازات المادّية كان لا بدّ أن ترافقها كوارث بشرية وإنسانية فما رأيكم في ذلك ؟

ج ـ أعتقد أن محاضرتي كانت شرحاً أو حاشيةً على هذا الكلام ، هذا كلام سليم . وروجيه غارودي واحد من الكثيرين الذين يتحرّقون على تحرير الغرب من هذا التخلّف الذي يعانيه باسم الحضارة ، أجل .. وأعتقد أن ما نشاهده اليوم من صراع وتصادم بين ديمقراطية روجيه غارودي وبين استبداد جهات غربية أخرى مظهر لصراع ستكون الغلبة فيه للإسلام ، أي للتقدم الإنساني في الغرب .. أعتقد أنني لست بحاجة إلى أن أضيف أي شيء على هذا الكلام .. ودعوني أذكّركم بالموقف الغربي من سلمان رشدي تجاه روايته القذرة التي ليس فيها إلا الشتائم والسّباب ، ومن روجيه غارودي تجاه كتابه الوثائقي عن إسرائيل ، تجدون ما يبعث على القرف المضحك !..

س ـ أشكركم على محاضرتكم ، وإني لأحبّكم في الله .. سؤالي هو ما مدى تجاهل المسلمين للعلم المباح ، وكيف يكون التوفيق بين العلم المباح والعلم الشرعي وخاصة في العالم الإسلامي اليوم ؟

ج ـ لا أعلم أن هناك ما يسمى بالعلم المباح ، هناك علوم تدخل في نطاق الفرض العيني ، وعلوم تدخل في نطاق

الفروض الكفائية . أي إن العلوم التي تسميها مباحة هي من الفروض الكفائية ، أي يتعلق وجوبها بالمجتمع من حيث هو كل ، فإن نهض بها من يتحقق بهم الفائدة المطلوبة منها ، فقد ارتفعت المسؤولية عن سائر أفراد ذلك المجتمع ، وإن لم ينهض بها من تتحقق بمعرفتهم لها تلك الفائدة ، فكل أفراد ذلك المجتمع آثم ومسؤول ..

وما أكثر العلوم التي تدخل في دائرة الفروض الكفائية ، حوّلها إهمالنا لها ربما إلى فروض عينية . وأنا لا أحيل هذا الإهمال إلاّ إلى سبب واحد لا ثاني له ، هو تفرقنا !.. قد يقول فيكم قائل : ألا يمكن أن يكون السبب الجهل .. الفقر .. التّخلف .. مثلاً ، وأؤكّد أن هذه الأسباب وأمثالها فروع وأغصان أما الجذع الأساسي الذي تتولّد منه هذه الأغصان فهو التفرّق الذي حاق بنا .

س ـ هل علينا الانتظار حتى يولد الإسلام في الغرب ؟ وهل معنى كلامك تهميش دور المسلمين في العالم ولا سيا في العالم العربي ؟

ج ـ أنا لم أقل إن على المسلمين أن يرقدوا ويناموا إلى أن

يستيقظ الغرب ويتوجه لاعتناق الإسلام . متى قلت إن على المسلمين أن يكونوا مثال الكسل ومثال التّواكل ؟ هنالك شطران في العالم : العالم الإسلامي الذي ابتلي بما ابتلي به ولسنا بصدد الحديث عن ابتلاءاته وسببها ، الشطر الآخر العالم الغربي .. العالم الغربي هذه هي نظرتي إليه وهذا هو ما أتوقّعه منه ، وأعتقد أنني لست مبالغاً في هذا التوقُّع .

لكن لا نهضة الغرب إسلامياً تفيدنا ، ولا تقاعسه عن هذه النهضة تضرّنا ، الطريق معبَّد أمامنا وميسّر ، ونداء الله يصكّ أسماعنا . وليس هناك ما يقتضي أن نتكاسل أو نتواكل أو أن ننتظر أسبقية الغرب لنا في هذا المضمار .

س ـ ألا تعتقد يا حضرة الدكتور أن هذا الجسر المقطوع سوف يتّصل بقيام دولة الإسلام ، وليس عبر العلم ولا عبر الوجدانيات التي هي تحصيل حاصل بعد قيام دولة الإسلام ؟

ج ـ أريد أن أسأل السائل : دولة الإسلام أهي بوابة ومدخل إلى الإسلام أم هي نتيجة لهيمنة الإسلام على الأفراد ؟ الجواب عن هذا السؤال واضح إلى درجة البداهة ، على الرغم من

أن بعض الإخوة يتيهون عن معرفته . يقولون : دولة الإسلام هي التي تحلُّ مشكلة الدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، وهي التي تحلُّ سائر المشكلات الأخرى !!

دولة الإسلام هي آخر المراحل على طريق العمل الإسلامي : يتحقق الإسلام في نفوس المسلمين أولاً ، يتنامى الإسلام يقيناً في عقولهم ووجداناً في قلوبهم ، ويتواصل المسلمون ويتآلفون ، ويتحقق فيهم معنى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٠] .

وتنظر بعد ذلك لتجد أن الدولة قد انبثقت من هذا الواقع .. وليس الإسلام المتمثل في المسلمين الصادقين هو الذي ينبثق من الدولة ونظامها !..

هذا التصور الذي يتخيّله السائل تصور عجيب ومعكوس . المسلمون في صدر الإسلام وُجدوا أفراداً أولاً ، تآلفوا وتحابوا ثانياً ، وعندئذ انبثق من تآلفهم ونهجهم الإسلامي الذي التزموه ، الدولة .

س ـ كيف تنبعث النهضة الإسلامية من الغرب ، والمسلمون في الغرب مشتتون وكل يغني على ليلاه ؟

ج ـ من قال لك يا أخ إن الله لن يهدي الغربيين إلى الإسلام إلا من أجل سواد عيون المسلمين ؟ من قال هذا ؟

هذا دلالٌ كبير على الله أن تتصور أن الغرب لن ينهض من كبوته ولن يتعرف على الإسلام إلا إذا امتدت يد من العالم الإسلامي لتنتشله !.. ويد الله .. وقدرة الله .. وهداية الله .. أنسيت ذلك كله ؟ كما حبّب الله إليك الإيمان يحبّبه إلى الآخرين هذا شيء واضح .. لا تجعل نفسك وسيطاً بين الله وبين عباده .

س ـ إذا أخذنا بالنظرية القائلة : التجربة الفاشلة تحمل في داخلها بذور نقائضها ، فلماذا لا تنبثق النهضة الإسلامية من الشرق ، وقد وصل من تجربته الشاردة إلى مرحلة الفشل ؟

ج ـ القاعدة ستطبق عندنا كما تطبق في الغرب .. أنا أسأل الأخ السائل :

الصحوة الإسلاميـة التي لا نرتـاب فيهـا من أين جـاءت ؟ جاءت نتيجة التجربـة الفـاشلـة التي استمرت ردحـاً من الزمن . وهل هنالـك من يرتـاب في أن صحوة إسلاميـة عـارمـة تجتـاح محيطنا الإسلامي ؟ وهل هنالـك سبب للخطر الإسلامي الـذي يتوجس الغرب خيفة منه إلا ظهور هذه الصحوة ؟

ودعـوني أَقُـلْ لكم شيئـاً مـا كنت أريـد أن أقـولـه ، ولكن ينبغي أن أقوله لكم في هـذه المنـاسبـة . أنـا قرأت تقريراً لمجلس الأمن القومي الأمريكي صدر عـام ١٩٩١ ، يتضمن الحـديث عن خطـــورة الإســـلام على الغرب ، ثم يرسم التقرير بنـــوداً عــدّة لمقاومـة هـذا الخطر والوقوف في وجهـه ، من هـذه البنود إثـارة التنـاقضـات بين المسلمين ، وتـأليب المسلمين بعضهم على بعض . وهنالك بنود أخرى لا داعي إلى ذكرها هنا .

هـذا الخوف نتيجـة لظهـور الصحـوة الإسـلاميـة في العـالم العربي والإســـلامي ، والصحـــوة الإســـلاميـــة ثمرة لقـــاعـــدة : « التجربة الفاشلة تحمل في داخلها بذور نقائضها » .

س ـ أليس التخلي عن الزمان المطلق وكل تعاليم نيوتن العلميـة هو التطور الطبيعي للعلم . لا أعلم لماذا تسمي النظريات العلميـة تصورات ، وأنت لست ضـد العلم ، أمـا عن الشـك أفلا يؤدي إلى اليقين وهـو بـاب الإيمان ؟

ج ـ هنالـك فرق بين قولنـا : (البحث العلمي) وقولنـا : (القرار أو القانون العلمي) ، ربما صدق على الرجل أنـه بـاحث علمي عندما يحاول أن يصل إلى حقائق علميـة مستعينـاً بـالمنهج العلمي والوسـائـل العلميـة .. ولكن ليس بـالضرورة كل بـاحث علمي واصلاً إلى الحقيقة العلمية الثابتة .

إن الباحث في أصل الإنسان عن طريق دراسة علم الأجنّة المقارن ، ودراسة المستحـاثـات بـاحث علمي دون شـك ، ولكن القرار الذي سينتهي إليه ليس بالضرورة قانوناً علمياً ثـابتـاً . إذ قد يصل هذا الباحث من خلال بحثـه إلى الحقيقـة العلميـة وقـد لا يصل . مثال ذلك لامارك وداروين ، فـإن كلاً منهما بـاحث علمي بلا شـك ، ولكن أيّـاً منهما لم يصل من وراء بحثـه العلمي إلى الحقيقة العلمية الثـابتـة عن أصل الإنسـان . وكل من أوربـة وأمريكة شاهدان على ذلك .

إذن ، فنيوتن كان باحثاً علمياً متألّقاً بدون ريب ، وقد وصل من خلال بحوثه العلمية إلى معرفة كثير من الحقائق العلمية . ولكن مما لا ريب فيه أن جهوده واجتهاداته العلمية عاقته عن معرفة الحقيقة العلمية في كثير أو بعض من الأمور الأخرى .

منها أن اجتهاده العلمي هداه إلى أن الزمن له وجود ذاتي مطلق ، فقد ظهر فيما بعد ظهوراً يقينياً أن الزمن ليس له وجود ذاتي مستقلّ وإنما هو ظلّ متحرّك للأحداث أو هو كما يقرر العلماء « البعد الرابع المتحرّك للمكان » .

فهل بوسعنا أن نسمّي تصور نيوتن للزمن حقيقة علمية كما كان يتصور هو ، وقد ظهر اليوم بطلانه وخطؤه ؟ لو كان بوسعنا ذلك لاستوى الصواب والخطأ ولكان كل منهما حقيقة علمية !..

إن الذي تطور (بالنسبة لهذه المسألة) من عهد نيوتن إلى الآن ، هو عقلية الباحثين العلميين وليس الذي تطور العلم بحدّ

ذاته .. لوقلنا ذلك ، لكان معناه أن الزمن كان له أيام نيوتن وجود ذاتي مطلق ، ثم إن هذا الوجود اختفى اليوم ليصبح أمراً نسبياً ومجرد بُعد رابع للمكان . ولا شك أن أيّاً من العلماء أو الباحثين العلميين لم يقل هذا .

أما الشك فلا ريب أنه هو الحافز إلى الوصول لليقين .. مما لا ريب فيه أن الشّك مرض أو نذير مرض ، وإنما علاجه البحث العلمي الذي من شأنه أن يحرّر صاحبه شيئاً فشيئاً من مرض الشك هذا ويرقى به إلى ساحة اليقين .

وهذا ما عناه الإمام الغزالي عندما تحدث عن الشك الذي انتابه ، ومن ثم دفعه إلى أن يبدأ رحلته الطويلة بحثاً عن اليقين . وحديث ديكارت عن الشك منهج قلّد فيه الغزالي رحمه الله .

يقول العلامة التونسي المؤرخ الأستاذ عثمان الكعاك في محاضرة ألقاها في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي في الجزائر ، وقد كنت مشتركاً فيه ، إنه زار مكتبة ديكارت ، وعثر بينها على ترجمة كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) ، فأخذه ومضى

يقلّبه ، ووجد لديكارت تعليقاً بخط يده على مسألة الشك التي تحدث عنها الغزالي ، هذا نصّه :

« ينقل هذا إلى منهجنا .. » .

س ـ ما هي العلاقة بين الجاهل والمتعلّم ، ولا سيما أن الجاهل في بعض الأحيان لا يعلم أنه جاهل ، فكيف السبيل إلى أن يعلم جهله ، ومن ثم إلى أن يهتدي إلى من يثق بأنه عالم سيهديه إلى الحق ، وما هو المعيار الذي يمكن أن يعتمد عليه لأخذ المعرفة ؟

ج ـ يقول الإمام مالك إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . طبعاً هذا الكلام يمكن أن يأتي من يصادر عليه فيقول : الدين أولاً أم العلم أولاً ؟

على هذا السائل أن يقف أمام إنسانٍ حيادي يتعامل مع العلم الحقيقي ، لا يتحيز إلى الدين على حساب العلم ولا يخون العلم في سبيل الدين . وهذا ما يأمر به الله عزّ وجلّ في محكم تبيانه ، وذلك إذ يقول : ﴿ ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦/١٧] .

شيء واحد يجب أن يسترعي انتباهك ، هو أن على هذا الإنسان إذا حدثك عن العلم أن يكون مخلصاً له وأن لا يستعمل العلم ويستغله أداة لأسبقيات يريد أن ينتصر لها وأن يدعو إليها .. تأكد أنك إذا وضعت يدك في يد مثل هذا الإنسان ، سينتشلك أولاً من ظلام الجهالة إلى نور المعرفة ، ولسوف يوصلك نور المعرفة بدوره إلى الإيمان والإسلام .

ذلك لأن الإيمان الحقيقي بالله وما يتبعه من مبادئ وأحكام ، نهاية في طريق العلم . ومن ثم فلا بدّ لكل من واصل رحلته العلمية إلى النهاية ، أن يسلمه العلم أخيراً إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، الذي بعث به الأنبياء والرُّسل جميعاً منذ آدم إلى آخرهم محمد صلّى الله عليه وعلى آله وسلم .

س ـ المتأمّل في الغرب والتحولات الاجتماعية والدينية فيه ، يرى بوادر صراع ، بل صراعات بين الروحانيين والماديين ، وبين الروحانيين وأنفسهم من خلال الديانات المتعددة والمذاهب الروحية المتولدة يوماً بعد يوم فهل سطوع شمس الإسلام سيكون بعد هذا الصراع المرير ؟

ج ـ هذا الصراع قائم فعلاً ، وهو كما يقول السائل أو

السائلة صراع بين الماديين والروحانيين وبين الروحانيين أنفسهم .. ولا شك أن الديانات الوافدة كالبوذية ورياضات اليوغا تلعب دوراً كبيراً في هذا الصراع .

ترى ما مصدر هذا الصراع بين أناس كلهم متبرمون بقسوة المادة وكلهم يحنون إلى عالم روحاني منعش ؟

سبب الصراع أنهم بمقدار ما يحنون إلى الحياة الروحية ، يتمسكون بالضوابط العلمية ويصرّون على أن لا يجنحوا عن موازين العلم يمنة ولا يسرة .. ذلك لأنهم رُبُّوا على العلم ونشؤوا في ظلاله ، ومن ثم فإن أيّاً منهم لا يرضى أن يكون إقباله على الحياة الروحية بديلاً عن تمسُّكه بالموازين العلمية في تعامله مع الحضارة والحياة .

ومن هنا يقوم الصراع بين دوافع الحنين إلى الحياة الروحانية ودوافع التعامل مع العلم لمواصلة النهج الحضاري والمحافظة على المكاسب العلمية .

فما الذي ينهي هذا الصراع ، ويعقد صلحاً دائماً بين الروحانية والعلم ؟

إنـه الإسلام .. فهـو من دون الأديـان الـوافـدة التي تغـزو أوربة ، الدين الذي يمتع الإنسان بالنعيم الروحي ، ويضبطه في الوقت ذاته بموازين العلم وأحكامه .

إن روحـانيـة الإسلام ثمرة لممارسـة حقـائق العلم والسير على صراطه ، وليست خيالات وأحلاماً وهمية شاردة عن قواعد العلم وضوابطه .

إن اعتناق الإسلام لا يكلّف صاحبـه التضحيـة بـالعلم ، بل يزيـده تعلّقـاً بـه وإقبـالاً إليـه ، في حين أن الإقبـال إلى تلـك الأديان الوافدة ، لا يتم إلا بالتخلي عن العلم والاستسلام لسمادير الخرافات والأوهام .

إذن فـإن السبيل الـوحيـد للنجـاة من هـذا الصراع الـذي تتجلى بـوادره فعـلاً في المجتمعـات الغربيـة ، هـو التـوجّـه إلى الإسلام . بل إن هذا الصراع يشكّل العـامل الرئيسي في ضرورة المصير إليه ، وفي كونه الحلّ الوحيد للمشكلة .